الفلاسفة الاسلاميون
بين المعتزلة والأشاعرة

للاستاذ علي مصطفى الغرابي

هذه هي المدارس الثلاث « مدرسة المعتزلة والفلاسفة الإسلاميون والأشاعرة » التي حملت لواء التفكير العقلي للثقافة الإسلامية تحت ظل الإسلام وفي كنفه ، ثلاث مدارس كبرى لها مجهود جبار أخرج لنا هذا الكنز الثمين للثقافة العقلية الإسلامية، وكانت غاية هذه المدارس الثلاث واحدة، وهي الوصول إلى معرفة موجد هذا الكون ، وعلاقة موجده به ، وإلى تعليل وقوع الخير والشر فيه ، وكذا علاقة الانسان بهذا الموجد ، وإلى أي مدى تمتد قدرة الانسان ، وهل للانسان استقلال بأفعاله أو هو مظهر من مظاهر قدرة الله لا غير ، ولا شأن له في نفسه .

هذه هي المشاكل التي تعرضت لها هذه المدارس ، واختلفت حلولها لها تبعا لاختلاف مناهجها في الوصول إلى هذه الغاية . وبمقدار قرب المنهج الذي سلكته كل واحدة الوصول إلى غايتها أو بعده من منهج الأخرى كانت أوجه الشبه بينهم قربا وبعداً .

ولأجل أن يكون حكمنا صحيحاً يجب أن نتعرف نشأة كل واحدة باختصار لنكشف عن بيئاتها التي كان لها التأثير على ثقافاتها ، لهذا سنضطر إلى الكلام على نشأة كل واحدة باختصار ولنبدأ أولا بمدرستي المتكلمين لاتصال حياتهما الثقافية اتصالا وثيقاً

نشأة المعتزلة :

في درس الحسن البصري الذي جلس يلقي دروسه الشفوية الجامعة بين أصول الدين وفروعه ، وبين الدين من جانب ، والسياسة من جانب آخر وفي مسجد البصرة ، ومن بين تلامذته ، وفي أواخر القرن الأول الهجري وأوائل الثاني منه ، نشأت فكرة الاعتزال ، أو بذرت أول بذرة لهذه الدوحة العظيمة التي صارت فيما بعد مدرسة كبرى من مدارس الثقافة الاسلامية

كانت هذه الفكرة في أول أمرها بسيطة ، خلاف قام بين الأستاذ وتلميذه (واصل بن عطاء) على مرتكب الكبيرة من المسلمين حين جاءه رجل يسأل عن شأن مرتكبها — حيث كانت هناك طائفة تقول « بكفره » وهم الخوارج وأخرى تقول بإيمانه — وهم جمهور المسلمين — وثالثة تركت أمره إلى الله سبحانه ولم تحكم عليه بإيمان ولا كفر ، وقبل أن يجيب الحسن البصري أستاذ واصل والذي كان يسمى صاحب الكبيرة « منافقاً » أجاب واصل بأنه « في منزلة بين المنزلتين ، فليس بمؤمن ولا كافر ، لأنه لم يجمع كل أجزاء الإيمان حتى يكون مؤمناً ، ولم يفقد كل أجزائه حتى يكون كافراً ، فالأولى أن يسمى (فاسقاً) لا مؤمناً ، ولا كافراً ، ولا منافقاً ، — وسيبقى هذا الرأي أصلا من أصولهم المجمع عليها . وعندئذ قام واصل إلى اسطوانة من مسجد البصرة وأخذ يقرر على بعض زملائه من تلامذة الحسن بعض أفكاره ، ويقال إن الحسن لما رأى منه ذلك قال . « اعتزلنا واصل » فسموا (معتزلة) لهذا ، وهناك آراء أخرى في تعليل اطلاق هذا الاسم عليهم ، في هذا الوقت لم يكن واصل يفكر أن خلافه هذا مع أستاذه سيكون مدرسة من مدارس الاسلام الكبرى وأنه سيتفرع منها مدارس أخرى — على حسب التأثير الذي تأثرت به كل مدرسة من الثقافات الأجنبية المختلفة، حتى أصبحت طبقات هذه الطائفة (المعتزلة) عشرين طبقة بينها خلاف في بعض الفروع هو أساس تفرقها ، وإن كانوا جميعاً على أصول سنذكرها فيما بعد .

وإذا بحثنا عن منشأ هذه الفكرة — فكرة مرتكب الكبيرة — نجد أن الخلاف السياسي الذي قام بين المسلمين بعد قتل « عثمان رضي الله عنه » هو السبب في وجودها حيث أخذت كل طائفة تخطيء الأخرى معتقدة أن الحق في جانبها ...

إذن كانت مهمة هذه المدرسة في أول نشأتها الدفاع عن رأي سياسي سببه الخلاف بين المسلمين ، ولما مرنت هذه المدرسة — وبعبارة أخرى مرن أصحابها — وآنست من نفسها القدرة عليه ، وعلى الجدل ضد الخصوم — وإن كانوا من طوائف أخرى لا تدين بدين المسلمين — لما مرنت على هذا قامت بواجبها بجانب الجيش الذي يدافع عن هذه الدعوة الإسلامية بالسيف ، ولكن كان دفاع هذه الطائفة بالحجة والدليل ، دخلت أمم كثيرة تحت لواء الإسلام ، وكانت هذه الأمم أصحاب عقائد دينية وثقافات فكرية ولهم شبه : إما نشأت في دينهم الجديد وبقيت معهم بعد إسلامهم ، وإما نشأت من مقارنة دينهم الجديد بديانتهم التي ورثوها عن أسلافهم . ومن يقوم بالدفاع والإجابة على هذه الشبه ؟ قام بهذا المعتزلة ، وأبلوا في هذا بلاء حسناً ، ولهذا سنجد من